

كلمة

الخيمة 1*



لوقارنا بين إعلام المعارضة أيام «خيمات الحرية والسيادة والاستقلال» في ساحة البرج، وإعلام الموالاتة اليوم مع «خيم حزب الله والمعارضة» في ساحة رياض الصلح، لوجدنا أن الفريقين «متفاهان» على أن الاستحواذ على الاملاك العامة لهدف سياسي هو أمر مشروع؛ فالمعارضة تشجع عملها اليوم والموالاتة شرّعت عملها بالأمس. وهذا «التفاهم» لا يتوقف هنا بل يمتد إلى كل الأمور بما في ذلك التعدي على الملك العام والمصالح العامة. وإذا كان الاعتصام، سواء في الأمس أو اليوم، هو أمر مؤقت ومبزر وحتى مرحّب به لأنه ظاهرة احتجاج مدنية سياسية، فما الذي يبزر التعدي على العام لصالح الخاص؟ كسب المال والطمع بالمزيد؟ ثم لم التعادي بشرعنة هذا التعدي ليصبح دائما بل رمزا لا يجوز المسّ به؟

وبما أننا بالخيم، فلنبدا بتعريف الخيمة وفقاً للسان العرب:
«البيت أو المنزل... إنما تكون من شجر فإن كانت من غير شجر فهي بيت...»

إذاً يمكننا أن نعتبر أن ما نراه حولنا من استحواذات (مهما كانت الأسباب) هو عملياً منازل وبيوت، وبالتالي أصبحت ملكاً خاصاً، فلبنان «مخصّص» منذ زمن، ولكل خيمته.

لبنان هو كناية عن خيمتها ما لها وعليها ما عليها. أعودها وعوارضها بالكاد مربوطة، ومشايجها ليسوا أهل الربط والحلّ فيها، بل حتى إنهم ليسوا أهلها. ولعل هذه الخيمة هي عنوان عريض للخيم الواقعية التي يقيمها هؤلاء الزعماء، فإذا بوطنهم يصبح خيمتهم، وعلى ظهرنا وبطننا وأحلامنا علت.

خيمهم أنشئت بالعادات والتقاليد والحروب والمواقف، ثم بقوانين وقرارات ومراسيم يفترض أنها مؤقتة، ولكن الواقع أنها هي الدائمة وما سمي بالدولة هو المؤقت الذي كان الإخراج الضروري لقيام هذه الخيم وديمومتها. وحتى لا يظن أحد من العرب أنه أحسن حال فهذا الكلام ينطبق عليهم أيضاً. ولنا في خيمة معمر القذافي رمز أعجب به الغرب خاصة، وبالأخص ساركوزي وبوش. نعم، بلادنا خيمة وفي هذه الخيمة بدوي وهذا البدوي هو نحن.

تبلغ مساحة خيمة سوليدير كأرض مسطحة مليونين ومائتي ألف م² تستعمل على خيم رئيسية عدّة، منها: السراي الحكومي التي أنشأها العثمانيون وهي اليوم ملك خاص «لأهل السنة»، تليها الكنائس والجوامع ويتجاوز عددها 11 وهي ملك خاص لطوائفها، باستثناء الطائفة الشيعية التي لها حسينية في زقاق البلاط على تخوم سوليدير، ولها حديثاً خيمة مجلس النواب الواقع في ساحة النجمة سابقاً أو ساحة رفيق الحريري اليوم (هكذا يتعابش «الشيعية» و«السنة»)، وعلى النجمة السلام. تأتي بعد ذلك خيمة «ببال» التي أنشئت مؤقتاً كمقر لعقد مؤتمر الفرنكوفونية، ولكن «ببال» كبر وتوسّع والمؤقت أصبح دائماً. ولاننسى الخيم الأربع الضرورية (وإن غير كافية حتى لاننسى الغطاء الأمني القمعي في الحرب الأهلية ومنذ الطائف) لما صار ويصير ولصيرورة لبنان الخيمة، و«الموالاتة» و«المعارضة» على حدّ سواء: خيمة المصارف، الشارع الوحيد الذي لم تدمره الميليشيات لبنان وفلسطين والعروبة والبروليتاريا والإمبريالية (هل عرفتم اليوم قدسية القطاع المصرفي؟)، وخيمة مجلس الإنماء والإعمار، رمز ما سمي «مسيرة الإنماء والإعمار»، وخيمتا وزارتي المالية والاتصالات.

وهناك خيمة لا يجوز نسيانها تدلنا عليها سوليدير كما يلي: «يقع مبنى بلدية بيروت بين شارع عبيد وبيغان وفوش ويشكل معلماً مدنياً ومعمارياً يعود إلى العام 1934. وهو بناء يعود تصميمه إلى العهد المملوكي الجديد، والذي يسمّى أيضاً بالأسلوب «النشرفي» أو «العربي»، وهو تعبير يستخدم للإشارة إلى الزخرفات المختلفة في الأحياء الإسلامي التي تستعمل في المباني العامة للتعبير عن هوية المنطقة».

هوية المنطقة؟ لنرى:

«Foch»، فوش هو «جنرال فرنسا» الذي أشرف على ولادة خيمة لبنان الكبير وعلى استسلام الألمان في فرساي إثر الحرب العالمية الأولى. أما «Weygand» وبيغان فهو الجنرال الذي سارع بالاستسلام لألمانيا في الحرب العالمية الثانية. أما أميرس المملوكي فقد هزم آخر ولايات الفرنج في أرضنا. وشارع وبيغان هو امتداد لشارع عمر الداعوق والذي قيل إن إيفانا ترمب «صممت» عليه برجا، كل ذلك على مرمى حجر من شارع عبد الحميد كرامي وسعد زغولول. وبعد، لماذا يضيق البعض بـ «خيمات الحرية» و«خيم المعارضة»، خاصة أن أرباح سوليدير بلغت نحو 132 مليون دولار معقبة من الضرائب (2006)؟ ولذا، أهلا بخيم إضافية تحمل شعارات سياسية لا مالية، مثل خيمة المفوقدين أو المفتولين في لبنان أو المسجونين في سورية ومكانها حديقة جبران خليل جبران أمام خيمة بيت الأمم المتحدة الذي تبلغ كلفته علينا أكثر من 8 مليون دولار سنويا.

«في بيت أبي منازل كثيرة»، ولكن ترى لماذا لم يتسم هذا البيت لآثار فينيقيا وروما وبيزنطية والإسلام؟ فلا عصر برونزي ولا حديدي ولا حتى «تراوماي» أو «طنجي» أو «عزّاب» ولا خيمة واحدة للذين فقدوا على حواجز زعماء الميليشيات اللبنانية، لنشعر أننا في عاصمة لها ذاكرة.

وقد يعشنا نحن 12,000 مستثمر وتاجر، وخاصة القلقين منا على أعمارهم ومصيرهم (وهذا حقهم)، عندما «نأتي إلى سوليدير»، أن نتذكر ساحة البرج وباب إدريس كما كنا وأن نذكر أكثر من 100,000 إنسان كانوا هنا.

* ستشر «الشهرية» ابتداءً من هذا العدد، سلسلة من المقالات تحت عنوان «الخيمة» بأرقام تسلسلية.

جواد نزع عده